

قضايا

«العلاقات السرية بين الوكالة اليهودية وقيادات سورية»، كتاب جديد للباحث الفلسطيني محمود محارب، يكشف أسراراً وتفاصيل كثيرة: كيف تمكّن القسم العربي في الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية من إنشاء جسور للتفاوض مع «حزب الكتلة الوطنية» في سورية؟ وكيف نجحت استخبارات القسم العربي في تجنيد عدد من العملاء ذوي «السمعة الوطنية»؟ الباحث صقر ابو فخر يقدم قراءة موسّعة في هذا الكتاب، هنا الجزء الأول منها .

قراءة في كتاب محمود محارب

الوكالة اليهودية وعملائها في سورية

[2/1]

والنشر، بيروت 1997)، ولا عند نصوص بابيل (نصوح بابيل، «صحافة وسياسة: سورية في القرن العشرين»، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1987). وكذلك قلما نعثر على شذرات عن تلك اللقاءات، حتى في كتب المؤرّخين المهتمين بتلك الحقبة، أمثال الراحلة خيرية قاسمية. فهل اتفق الجميع على إهالة الركام على هذه الوقائع خجلاً وخوفاً من حساب الناس؟ أو أنهم اعتبروا تلك اللقاءات شائناً عابراً مثل مئات من اللقاءات الطبيعية؟ ولا ريب عندي أن الاجتماع إلى بعض قادة اليهود كان أمراً معتاداً حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وربما حتى النكبة في 1948، خصوصاً أن بعض أولئك المندوبين كان من اليهود العرب، أو من المقيمين في البلدان العربية، على غرار إياهاو ساسون، المولود في دمشق في 1902، والذي درس في جامعة القديس يوسف في بيروت، وكان يتنقل بجواز سفر سوري. أو على منوال إياهو أنشتاين (إيلات)، الذي درس في الجامعة الأميركية في بيروت، وعقد صلات متشعبة بشخصيات لبنانية بارزة. ومعظم اللقاءات كان عابراً ولم يؤسس أي اتفاقات سياسية، وظل مقصوراً على عرض الأفكار، ومحصوراً في مناقشة التصورات والمقترحات. أما تجنيد بعض العملاء فجاء على أيدي الاستخبارات التابعة للقسم العربي في الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية، أمثال يوسف لنيادو، وهو يهودي دمشقي، وعبد الله عبود ونسيب البكري وفوزي البكري ويوسف العيسى. أما الشخصيات الوطنية التي التقت مندوبي الوكالة اليهودية، أمثال شكري القوتلي وفخري البارودي وفريد زين الدين وشكيب أرسلان وسلطان الأطرش وكمال جنبلاط، فلا يصير ذلك تاريخها الوطني، ولا يشوبه بأي شائبة. ويجب أن نتذكر أن ثمة زعماء آخرين رفضوا أن يلتقوا مندوبي الوكالة اليهودية رفضاً قاطعاً، أمثال نبية العظمة وعادل العظمة ومنير الريس وغيرهم.

المقرب حقاً أن تتمكن الاستخبارات الصهيونية من تجنيد أشخاص ذوي «سمعة وطنية»، أمثال نسيب البكري وشقيقه فوزي ويوسف العيسى. وهؤلاء أضيفوا إلى قائمة العار التي ضمت كثيرين، أمثال البياس ربابي وخير الدين الأحذب وسلوم مكرزل والباس حرفوش ونجيب صفيح، علاوة على المتعاونين معها سياسياً وعقيدياً، على غرار إميل إدة والمطران أغناطيوس مبارك والبطريرك أنطوان عريضة والمطران عبد الله الخوري وتوفيق عواد وكميل شمعون، وهؤلاء جميعهم من لبنان. أما في فلسطين، فمن يقرأ كتابي هبلل كوهين: «جيش الظل» و«عرب طيبون»، يشيب شعره في ما لو كان شعره ما زال أسود. وأمثال هؤلاء لا يمكن إحصاؤهم، ونكتفي بذكر القليل القليل منهم، على شاكلة أسعد الفاهوم وموسى هديب وحيدر طوقان وعارف العسلي والصحافي إبراهيم النجار (محرر جريدة «لسان العرب»)، وحافظ الحمدا لله وعبد الفتاح درويش والشيخ سعود العوري وحسن الشكعة وسليم الحاج إبراهيم وشقيقه سلامة وكامل الشنطي والشيخ أسعد الشقيري وعبد اللطيف أبو هنطش وحسن شكري وعبد الرحمن التاجي الفاروقي والشيخ محمود الدجاني وحسن عريقات والحاج طاهر قرمان وزهدي أبو الجبين والصحافي جورج عازز والصحافي بولس شحادة وفخري الشناشبي والشيخ حسام الدين الجارالله ورافع الفاهوم وأنور الشقيري وفخري عبد الهادي وفريد ارشيد وكامل الحسين وأحمد الشكعة ومحمود الماضي والشيخ فوزي الإمام ودرويش الداودي الدجاني ومحمود الداودي الدجاني وإبراهيم الدجاني وفوزي درويش الحسيني ومحمد نمر الهواري وسليمان طوقان.

الوعي السياسي في سورية في ثلاثينيات القرن العشرين، والخبرة المحدودة للزعماء الوطنيين السوريين آنذاك، جعلتا كثيرين يتوهمون أن التواصل مع الوكالة اليهودية، خصوصاً في سنة 1936، ربما يساعد في إقناع اليهود بالضغط على حكومة ليون بلوم الفرنسية كي تبرم معاهدة الجلاء التي وقّعها هاشم الأتاسي، والذي نال فور توقيعه رئاسة الجمهورية السورية، خصوصاً أن ليوم بلوم يهودي الديانة.

(كتاب عربي)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني



(تلاف الكتاب)

على غرار: «بني إبي، وقال لي أحد المصادر، علمت من مصدر مطلع .. إلخ». وجميع هذه الرسائل والتقارير والإخباريات والمعلومات فيها كثير من المبالغة، وهي تركز على إبراز الجهد الشخصي في تنفيذ المهام الموكلة إلى كاتب التقارير، وتعلي من شأن تأويله لمعلومات حصل عليها، وتفسيراته الشخصية للوقائع الجارية. والتوصل إلى حقيقة ما جرى في الماضي، استناداً إلى الوثائق التي أزيلت الستائر عنها، يحتاج إلى تجريدنا من التبجّحات والمزاعم والإعاءات بان فلاننا تمكن من اختراق هذه الجهة السياسية، ونجح في اكتساب ثقة ذلك الزعيم السياسي، وأنه استطاع أن يغيّر القناعات المستقرّة لدى ذلك المسؤول. وبهذا المعنى، يجب أن تقرّا التقارير والرسائل في ضوء مآلات الأمور، وبعد معاييرها على النتائج التي تمخضت عنها، ونقّيتها من العبارات الاستدرجية، مثل «قدّمت إليه هدية فسِرَ بها جداً وقبلها شاكرًا».

تتضمن الرسائل والتقارير، مثل أي رسائل وتقارير إخبارية أخرى، تقويمات شخصية وتقديرات موقف تتأثر أحياناً بمبول الشخص المعنى. وبهذا المعنى، هي لا تتضمّن الحقائق كاملة. ولمعرفة ما جرى حقاً لا بد من أن نقارنها برسائل وتقارير ووثائق الجهة المقابلة النقيضة. وبما أن هؤلاء كلّمنا تركوا مذكراتٍ أو رسائل أو تقارير تنير غموض بعض الجوانب، وتزيح اللثام عن أسرار تلك الحقبة، فإن معيار الاستنتاج في هذا المجال هو ما جرى في الميدان السياسي. ومن غير الممكن، علمياً، تصديق كل ما جاء في هذه الوثائق، والركون إلى جميع تفاصيلها، وذلك خضوعاً لمدأ الشك والاحتراس. ولكن، في الإمكان تصديق بعض ما ورد فيها، والانطلاق من ذلك إلى جلاء حقائق الأمور؛ وهذه مهمة شاقّة جداً وشائقة في الوقت نفسه. وبهذا المنظار، ساقراً كتاب محمود محارب ووثائقه المسطورة.

الشهبندر والسياسات المتعكسة

يلوح لي أن لقاءات مندوبي الوكالة اليهودية مع القادة السوريين إما أنها لم تكن مهمة جداً في ذلك الوقت، أو أنها كانت مدعاة للخجل، فلم يُشرْ هؤلاء الذين شملتهم اللقاءات إليها في مذكراتهم؛ فلا توجد أي إشارة إلى تلك الاتصالات لدى جميل مردم (سلمى مردم بك، «أوراق جميل مردم بك، بيروت»، شركة المطبوعات، 1994)، أو لدى لطفي الحفار (سلمى الحفار الكزبري، «لطفي الحفار: مذكراته، حياته، عصره»، رياض الريس للكتب

” يثير الكتاب أسئلة كثيرة وشائكة عن مقدار الاختراق الذي نجحت الوكالة اليهودية في إحداثه في قلب بعض القوى السياسية العربية

لم تتورّع الاستخبارات الإسرائيلية عن محاولة اغتيال شكري القوتلي في الوقت الذي كانت المفاوضات جارية مع الكتلة الوطنية

بعد مرور زمن طويل، ومعظم محتوياتها مجرد كلام يزمو بنشاط السفير وجهده، وأنه لا يترك مناسبة إلا ويحضرها لتيسّيق الأخبار والمعلومات. وعلى غرارها تقارير مندوبي الاستخبارات المملوءة بمعلومات

والاقتصار على النصوص وحدها مسألة ناقصة علمياً. ولا يستطيع المؤرّخ، مهما كان صادقاً، أن يكشف الماضي كما وقع بالفعل من خلال المصادر وحدها، وكل ما يستطيع أن يفعله، في هذه الحال، كشف ما جاء في المصادر ومحتوياتها. ومعيار الحكم في هذه المسألة هو الصدقية، أي عدم التلاعب بمضمون المصادر ونصوصها. والوثائق الصهيونية، مثل غيرها من الوثائق، لا تقرّ باعتبارها نصاً جازماً وقاطعاً ونهائياً؛ فتحليل الوثيقة أهم، في أحيان كثيرة، من الوثيقة نفسها، إلا إذا كانت الوثيقة اتفاقية سرية خطيرة، وعند ذلك تكون نصوص الوثيقة هي المهمة. أما الرسائل والتقارير فتحتاج إلى تمحيص دقيق لاكتشاف ما جرى بالفعل، خصوصاً أن الزمن يُلقِي بأسناره الظليلة فوق كلمات النصوص. لتأخذ، على سبيل المثال، تقارير مندوبي الوكالة اليهودية وتقارير عملاء الاستخبارات، أمثال أبا حوشي وشلومو أفيا ودوف هوز ويوسف فاين وحسن أبو ركن ويوسف العيسى وعبد الله عبود وفوزي البكري ونسيب البكري وغيرهم؛ فتلك التقارير تتضمّن، بالتأكيد، ما هو صحيح، لكن ليس كل ما فيها صحيح، فهي، مثل تقارير السفراء إلى رؤسائهم، تتضمّن استعراضاً لشناطهم، وتحفل بعبارات مثل: «التقيت السفير الفلاني، وتحدّثت إلى المسؤول العلاني، وقال لي كيت وكيت، ولمست لديه ميلاً إلى الموافقة على وجهة نظرنا، ووعدني بمتابعة الأمر مع وزير خارجيته، واتفقنا على متابعة البحث في شأن العلاقات الثنائية، وكانت مباحثاتنا مثمرة وإيجابية». أكثر من 50% من رسائل السفراء تُصبح بلا قيمة مع مرور الزمن، وترتفع النسبة إلى 80%

مغازلة حكومة ليون بلوم

الوعي السياسي في سورية ثلاثينيات القرن العشرين، والخبرة المحدودة للزعماء الوطنيين السوريين، جعلتا كثيرين يتوهمون ان التواصل مع الوكالة اليهودية ربما يساعد في إقناع اليهود بالضغط على حكومة ليون بلوم الفرنسية كي تبرم معاهدة الجلاء التي وقعها هاشم الأتاسي، والذي ناك فور توقيعه رئاسة الجمهورية السورية، خصوصاً ان بلوم يهودي الديانة. وكان الوطنيون يتعرضون، اواسط ثلاثينيات القرن المنصرم، لضغوط هائلة بريطانية وفرنسية معاً، علاوة على ضغط الاحوال السياسية المتفاقمة.

صقر ابو فخر



يواظب الباحث الفلسطيني محمود محارب على نشرياته في الوثائق الإسرائيلية المستورة، باحثاً عن معلومات تاريخية جديدة، تضيف إلى ما لدينا من معارف وأسرار مكتشفة عما حصل في فلسطين، ولا سيما منذ ثورة 1936 حتى النكبة في سنة 1948. وفي هذا الميدان، نشر أخيراً كتاباً مثيراً عنوانه «العلاقات السرية بين الوكالة اليهودية وقيادات سورية» (بيروت: جسور للترجمة والنشر، 2021). ويبحث هذا الكتاب، استناداً إلى تقارير ومراسلات صهيونية، جمعها الكاتب من الأرشيف الإسرائيلية، كارشيف الهاغاناه والأرشيف الصهيوني المركزي، كيف تمكّن القسم العربي في الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية من إنشاء جسور للتفاوض مع «حزب الكتلة الوطنية» في سورية، وكيف تمادت الاجتماعات مع قادة ذلك الحزب، أمثال جميل مردم ولطفي الحفار، وكيف نجحت استخبارات القسم العربي في تجنيد عدد من العملاء ذوي «السمعة الوطنية»، أمثال نسيب البكري وأخيه فوزي البكري ويوسف العيسى، علاوة على عبد الله عبود ويوسف لنيادو وغيرهما. الجديد في الكتاب، إلى حد ما، هو الإفصاح، بالاسم الصريح، عن تعاون مع الوكالة اليهودية، وتلقى منها الأموال لقاء خدمات خسيصة. ويكشف الكتاب، فوق ذلك، مقدار الوضاعة الصهيونية عندما لم تتورّع استخباراتها عن محاولة اغتيال شكري القوتلي في الوقت الذي كانت المفاوضات جارية مع الكتلة الوطنية، وهو أحد رجالها الكبار، وجنّدت لهذه المحاولة شخصاً يدعى ميشال جرجورة (ص 170- 173).

كنّا قرأنا الفصل الأول من هذا الكتاب «المخابرات الصهيونية وبدائيات التجسس على العرب» في مجلة «المستقبل العربي» (العدد 357، نوفمبر/ تشرين الثاني 2008)، وقرأنا الفصل الثالث «المقالات الصهيونية المدسوسة في الصحف السورية واللبنانية» في مجلة الدراسات الفلسطينية (العدد 78، ربيع 2009). أما الفصلان الثاني والرابع فيركزان على مفاوضات الوكالة اليهودية مع الكتلة الوطنية في سورية، ومع عبد الرحمن الشهبندر، فيما يشدّد الفصل الخامس الأخير على العلاقات التي أسّستها الوكالة اليهودية مع عدد من قادة الدروز في سورية، وخطتها لترحيل دروز فلسطين إلى جبل العرب، ثم فشل تلك الخطة. وقد بلغ عدد الوثائق 54 وثيقة، وأرقف الكاتب مع كل وثيقة أو رسالة أو تقرير الترجمة العربية. وأبرز تلك الوثائق تقارير إياهو ساسون عن اجتماعاته مع نسيب البكري ولطفي الحفار وجميل مردم ونصوح بابيل، صاحب جريدة «الأمم» الدمشقية، ورسائل أبا حوشي عن زيارته إلى يوسف العيسى في جبل العرب، واجتماعه إلى محمد الأشمر، ولقائه لاحقاً سلطان الأطرش. وجمع هذه الوثائق تعود إلى سنة 1938. ما عدا تقرير عن زيارة أبا حوشي إلى يوسف العيسى الذي يعود إلى سنة 1937. يثير الكتاب أسئلة كثيرة وشائكة عن مقدار الاختراق الذي نجحت الوكالة اليهودية في إحداثه في قلب بعض القوى السياسية العربية، ومدى الضرر الذي لحقه ذلك الاختراق. ولا ريب أن هذا الكتاب سيحرّض الباحثين العرب على الكتابة في هذا الميدان من منظار مواز أو حتى مطابق. وهذا الميدان ليس جديداً على الباحثين العرب؛ فقد أصدر بدر الحاج كتابه «الجزور التاريخية للمشروع الصهيوني في لبنان» في 1982، ثم ترجم إلى العربية كتاب كيرستن شولتز «دبلوماسية إسرائيل السريّة في لبنان» في 1998، وظهر كتاب ليئورا آيزنبرغ «عدو عدوي» في 1997، وترجم الكتاب الشامل والمفصل الذي وضعه رؤوفين إيرليخ بعنوان «المثاهة اللبنانية» في سنة 2017. وقبل هذه الكتب كلها، قرأنا مذكرات إياهو أنشتاين بعنوان «جلوس صهيون والعرب» (1974)، ومذكرات إياهو ساسون الموسومة بعنوان «في الطريق إلى السلام» (1978)، واطلعنا أخيراً على اتصالات الوكالة اليهودية ببعض قادة الدروز لدى المؤرّخ الفلسطيني قيس فرّو، في كتابه المهم «دروز في زمن الغفلة» (2019)، علاوة على شذرات من هذه القضية لدى سعيد نفاع في كتابه «العرب الدروز والحركة الوطنية الفلسطينية» (2008).

الوثائق وكتابة التاريخ

كشف الوثائق المخبوءة مهمة جليلة بالتأكيد، لكن الاكتفاء بمنطوق الوثائق